قصة مصرية

ضحـــــايا الحب

بقلم الأديب السعيد حسن طه

نشأت «مبروكة» مدللة في حجر أمها، لأنها الابنة الوحيدة بجانب أخويها الذكرين ـ التي هي وسط بينهما ـ فنشأت كأنها وردة بين أشواك.

كانت ساعد أمها الأيمن، ومفرج كربتها وقت الملمات؛ وكانت موضع آمال أمها، ومحط أمنيات أبيها.

نشأت ذات بنية سليمة ـ شأن جميع فتيات القرية ـ، ولا سيما وأنها اشتغلت من صغرها في مزرعة أحد الملاك الكبار، جرياً وراء قروش معدودة تبتاع بها ما يزينها، ويزيد في إدخال السرور على قلبها؛ وما كان لأمها أو أبيها أن يقفا حائلا أمام أمنيات ثمرة حبهما ـ وهما صفر اليدين ـ فيزيدان آلامها بمنعها من التمتع بما تحبها.

كبرت وترعرعت، وبرز نهداها، واعتدلت قامتها، وكمل تكوينها، وتمت أنوثتها.

كان الزهو يملأ قلبها؛ لا سيما وأنها على قسط ـ ليس بالهين ـ من الجمال، وجاذبية العذارى المغرية.

وكثيراً ما كانت تنام الليل وهي توجس خيفة من ذلك الرجل الفظ، الغليظ القلب، المسلوب العاطفة؛ ذلكم هو «عم غنيم خولي الزراعة»، الذي تأتمر في النهار بأمره؛ وليس في قدرتها مخالفته؛ فكثيراً ما كان ينتهرها إذا هي حاولت اختلاس نظرة، ممن يا ترى؟ من «يوسف» الذي بدأ يشغل تفكيرها.

و«يوسف»: شاب عامل فلاح، مفتول العضلات، معتدل القامة، شهم، قوي الشكيمة، المثل الأعلى للعمال، موضع سر الجميع، المشمول برعاية (خولي) الزراعة؛ ولكنه فقير، بل معدم.

وكثيراً ما حضرت مبكرة إلى الضيعة ـ التي تعمل فيها ـ لتحظى بنظرات من شاغلها الأوحد؛ ولكن أنى لها ذلك، والرجل يتعقب نظراتها، فيزجرها وينهرها بشدة، ويرفضها من مجلسهم إلى حيث تعمل بمفردها، حتى يوافيها زميلاتها؟

وما فتىء يتتبعها حتى علم (الخولي) أن هذه الفتاة حاولت وتحاول جهدها الاتصال بالرجل الذي

يعتمد عليه ، فخاف سوء العاقبة ، ومغبة القيل والقال : لا سيما وهو الرجل المهوب — بصفته رئيس العمل — ؛ فكيف يسمح للظروف أن تهيء لهما مقابلة .

وأخيراً تنبه « يوسف » إلى تلك العينين الناعستين اللتان تنظران إليه،وخيل له أن هناك داعياً يدعوه : أن لبّ نداء تينك العينين ، خشية أن ترمياك بسهامهما الفتاكة ؛ وكثيراً ما أحرجته الظروف حتى جعلت رئيس العمل يلحظه بعين الشدة ، وعدم الاعتبار ، كسابق عهده ؛ فخاف على هيبته وسط الفتيان والفتيات زملائه وزميلاته ؛ فكانا يتقابلان تحت ستار الظلمة الحالكة — عقب خروجهم من العمل — أو داخل غيطان الأذرة .

اشتد الحب بين الاثنين ، حتى كانا — فى مقابلاتهما — يسبحان بعقولهما فى سماء الحب التى لا نهاية لها .

وفى ذات يوم ، وهما فى نشوة الحب ، وفرحة اللقاء ، إذا بصوت جهورى يدوى كالرعد القاصف فى آذانهما : « الله الله ! حال أوى حال ! حتى انت يالى كنت بأول عنك إنك راجل تعمل كده يايوسف !طيب يا عم طيب؛ينعل أبو اللى عاد يعرفك بعد النهار ده منى أنا،وانت وخره يا بنت أبويا عبد الله يا مفعوصة ، يالى لسه ما طلعتيش من البيضة ؟ والله ما انا الا قايل لابوك واخواتك يكسروا لك اضلاعك ! » .

هكذا تم آخر موقف لقلبين تاقا ان يضمهما عش واحد قبل أن يزمهما قبر واحد ، فمنع الرجل ذلك الشاب الذى كان يكسب قوت يومه من العمل فى تلك المزرعة ، وعمل جهده حتى إنه أكثر من عيون الرقباء حول تلك العذراء المستهترة فى عرفه ، الملبية لنداء الحب ذى السلطان القاهر فى الحقيقة ؛ فاشتد كمدها ، وكثر عبوسها ، وساءت صحتها،ولزمت الفراش؛ وطفق الشاب يبحث عن مورد رزق؛ولكن كلما لاح له أمل؛ كان كأنه السراب،لا يزال يغريه، وكلما اقترب وكاد يلمسه لم يجد نفسه إلا مخدوعاً .

وبعد اللتى والتيا، قبل ذلك (الخولى) أن يرجع «يوسف» إلى العمل،على شريطة ألا يتصل بأية فتاة تعمل فى تلك الضيعة ، ففرق بين هذين القلبين ؛ وما كان ليوسف أن ينبس ببنت شفة ، وهو العائل الأوحد لأخويه الصغيرين وأمه العجوز .

وقد كان ما أراده العاتى الجبار من تفريق بينهما ، خصوصاً وأن الظروف هيأت له الفرص ، فقد هد المرض كيان الفتاة ، واشتدت بها الحمى ، حتى أخفت معالم ذلك الحسن البض ، وأنستها ما كان عالقاً بقلبها من صبابة وهيام .

أما الآن وقد مضى شهران وهى طريحة الفراش ، فقد بدأت تتقدم فى دور النقاهة؛وقد علمت أن هذا الفتى هيأت له الظروف ما ساعده على الانتقال هو وأهله من هذه الضيعة إلى مكان لا يعلمه إلا الله .

تنبهت إثر حلم لذيذ على صوت ما كادت تتبينه من حديثه مع أبيها ، حتى عرفت فيه سبب مرضها وبلائها ، فقال لها أبوها :

— مبروكة ، مبروكة ؟ قومى سلمى على عمك غنيم لحسن جه يسأل عنك .

هى (تتناوم بتكلف) .

— مبروكة ، فوقى يا ختى فوقى لحسن أبوك غنيم جه عشان يشوفك ، وجالك لحدك .

هى (تقوم بتكلف وتتثاءب) ، ثم تبتسم وتقول :

— أهلا وسهلا ، صباح الخير يا با غنيم .

— صباح الهنا والسعادة يا بتى ، سلامات يا مبروكة ، جرى إيه يا ختى ؟ ما تشدى حيلك ، الرز عاوز النقاوة ، شدى حيلك وبالله ساعدينا بأه ، إيه ! كده برضه يا مبروكة ! اجدعى يا بتى اجدعى ، وازاى الحال دلوقت ، مش اتحسنت شوية ؟

— الحمد لله ، ده بس بقدومك يابا غنيم .

— الله يشفيك ، والله وحشتينا يا مبركة .

— إنشالله ما تشوف وحش ، والله أنا كنت دايماً أشوفك وأنا نايمة زى اللى بخرف .

— أنا عارف يا بتى إنك زعلانة منى قوى ، ولكن لو عرفت الحقيقة ، والله وبالله يا مبروكة وعهد سيدى السيد البدوى إنى ما عملت إلا اللى فى مصلحتك،وانت زى أولادى وأخاف عليك زيهم سوى ، بق الواد المنحوس ده اللى ما حلتوش عشاه كان طمعان فيكى ، وانت تستاهلى واحد يكون بس على الأقل عليه طين ؟!ومع كل بكرة يا بتى ربنا يوعدك بابن الحلال وانشاء الله يكون على إيدى أنا برده .

— كتر خيرك وربنا يخليك لنا يابا غنيم .

— بتى شوفى أنا حلفت لك بالمهد اللى أنا واخده على إيد الشيخ عبد الرحيم ، فأنت لازم تعرفى إنى أنا بدور على مصلحتك . .

— والله كده ياعم الشيخ عبد الله .

— صادق يا شيخ صادق ، إيه دانت كلك بركة .

— وعلى كل حال ابقى اتعشى كده لحدنا شمى الهواء واتفرجى على الأولاد بينقوا الرز .

هيه ... أما أقوم بأه .

— ما هو بدرى . دى خطوة عزيزة .

— الله يعزك يا بنتى . خليتك بعافية . شدى حيلك .

— الشد على الله . ربنا ما يستناش فيك .

أطلت عليها الشمس بأشعتها الذهبية ، وما كانت تعهد فى الشمس هذا اللون البهيج ، فاعتمدت رأسها بين ركبتيها وجلست تفكر .

يا ترى ليه غنيم الخولى بتاع الزراعة فى عزبة السيد بيه جه النهارده ، مع إن امى بتقول إنى بقالى شهرين عيانة ... وصارت تكرر كلماته وتعيدها كلمة كلمة ، حتى وصلت إلى قوله : (أنا بدور على مصلحتك يا مبروكة) .

حقيق الراجل ده صحيح إنه شديد فى الشغل ، ولكنه محافظ على عيشه ، لجل البيه صاحب العزبة صعب فى الشغل بتاعه ، وإنما الكلام اللى قاله ده يخش العقل ، وخصوصاً إن أبويا وأمى مبسوطين منه أوى ، ولا يقولوش عليه إلا الراجل الطيب ، ومبسوطين منه أوى . الله يخليك ياغنيم ... وسرعان ما غيرت رأيها فيه وقامت تتحامل حتى إذا ما وجدت أمها منشغلة باعداد المنزل استأذنتها فى الخروج ، وخرجت فاجتازت نصف الطريق ، ولم تقو على المضى فى سبيلها ، فجلست للراحة ، ثم قفلت راجعة إلى عقر دارها .

صارت صحتها فى طريق التحسن ، حتى إذا استجمعت قوتها وشجعها شوقها إلى ابيها غنيم الخولى لترد له الجميل ، طلبت من أمها تجهيز غداها فى المنديل الحلاوى علشان حتروح تشتغل النهارده ، فأعطتها أمها ما طلبته وأوصتها بنفسها خيراً .

قابلتها زميلاتها بالفرح والسرور وبدأن فى التشمير عن أيديهن وأرجلهن استعداداً للنزول إلى غيط الرز للنقاوة ، وما أن رفعت سروالها قليلا عن رجليها حتى بهتت من نظرة عم غنيم إلى رجليها نظرة كأن لسان حاله يقول :

ساق تجلى كأنه قمر يحمل شمساً أفديه من ساق
شمر عن ساقه غلائله فقلت مهلا واكفف عن الباق
لما رآنى قد فتنت به من فرط وجدى وعظم أشواق
غنى وكأس المدام فى يده قامت حروب الهوى على ساق

فعلت خديها حمرة الخجل وزلت ، ولما مضى نصف النهار وحان وقت الطعام خرجن زرافات ووحداناً ، وأقبلت زوجة الخولى من بعيد تحمل له طعامه ، فما آن قاربته حتى بادرها بالشتم ونهرها وامرها بالرجوع ، فقنعت من الغنيمة بالاياب .

وهنا انتحى الخولى ناحية حيث نام فى ظل الصفصافة ، وطلب من مبروكة ان توقظه بعد انتهائهم من تناول الطعام للبدء فى العمل .

نام ، وقد جعل غايته النوم وسعى إليه بكل الطرق ، ولكنه لم يدركه ، لأن عينيه تحملقان فى الشجرة التى من تحتها يطل خيال مبروكة ، ويتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، لعل الشبح

يبعد ، ولكن انى لحب أن ينجو من غائلة الخيالات ؛ مضت فترة الطعام وكأنها ساعات طويلة قضاها المسكين على أحر من الجمر ، ولم يتنبه إلا على صوت يقول :

— أبا غنيم ! أبا غنيم ؟

يتناوم .

تقترب وتهزه بخفة وحنان قائلة : أباغنيم . ابا غنيم .

— مين . آه مبروكة . زيني كنت رحت فى النوم . اتغديتوا يا مبروكة ؟ أيوه خلاص يا باغنيم . طيب ياختى اقعدى بس على ما أفوق.

تجلس عن كثب . ثم يعتدل فى جلسته :

— والله آنستينا يا مبروكة

— الله يآنسك يا باغنيم . إنما انا زعلت منك ثانى .

— ليه بقى . بعد الشر .

— علشان شخطت فى خالتى حنيفة مراتك النهارده .

— آه . والله يا مبروكة أنا زهقت خالص من عيشتى معاها ، وانا صممت خلاص لما أبيع القطن بتاعنا السنة دى لازم اتجوز بنت بنوت أشوف لى يومين معاها ، وبلاش اللى عيشتها هباب دى .

— تتجوز بنت بنوت ، وانت قد كده ياباغنيم ؟ وده يليق .

— يا سلام يا مبروكة . لهو أنا البنات ما يرضوش بيه ؛ وأنا لسه عصبى زى ما آنه . والوليه اللى معاية دى حتفقد عمرى . طيب دا أنا مفيش حد فى الرجالة دى بعون الله يغلبنى فى حاجة ، ولا حتى تقليع الحطب ، أنا باسبقهم، وما دام حادفع مهر كويس يشرفها . إيه بأه . يا سلام دى البنات فى عزبتنا متلتلة ! ! . طيب وانتى ما ترضيش بى يا مبروكة ؟ ؟ : .

هنا علت حمرة الخجل خديها حتى كاد الدم ينفجر منهما .

لم يعرف الاثنان بالتحديد كيف قضيا يومهما ؛ وفى الصباح التالى طلب منها أن تزاول كنس مراعى الغنم (لـكى تـكون منفردة) ، ثم وافاها على انفراد بعد توجيه العمال كل إلى ما يليق له؛ وصارحها الحقيقة، وأنه من يوم أن حضر إليها وهو منشغل البال، وكثيراً ما كان عجبه من سلوكه معها فى الأيام الأخيرة وعدم التفاته إليها إلاعقب حادثة يوسف الأولانية ، ثم شرح لها هواه هو بلهجة لا تتطرق إلى من جاوز الأربعين، وصار يلقى بكلمات هى أقرب للشباب منها إلى الشيب ، وحنين الشيخ إلى الصبا .

اعترت الفتاة صور من أمانى وأشباح : هناك شبح المال والعز والسطوة يغريها ، وهناك شبح الضرة زوجته القديمة وأم عياله يشقيها .

لم تكن مبروكة لتستطيع مقابلته والشمس تشهدها ، فاتخذا من ظلمة الليل ستاراً يقيهما عيون الناظرين ، رغم ما يشعر به الناس بما فى الليل من ظلمة ووحشة .

تغيرت مواعيد الرجل عند زوجته ، وخاصة تغيبه عقب صلاة العشاء وحججه التى هى فى حكم الواهية من أنه يكر راجعاً إلى الغيط لبعض الشئون بخلاف ما تعودته زوجته .

اختمر الشك فى رأس زوجته ، فقامت وراءه مرة تتبع خطواته من بعد وعن حذر ، فرأت ويا لهول ما رأت! رأته يقترب من شبح جالس وراء شجرة ضخمة ، ووقفت تسترق السمع الذى أوصل إلى أذنها كلامهما ، فكان ينزل على قلبها أشد فعلا من أثر السهام ، وأعظم مرارة من الصاب والعلقم .

قفلت راجعة وقد فقدت نصف عقلها،وظهرت كأنها الغول توشك أن تلتهم كل ماقابلها. وجلست فى عقر دارها تفكر وتدبر . فى أى المهالك تلقى بتلك الفتاة التى تعمل تحت ستار الليل على انتزاع بعلها وأعز عزيز لديها ، وجالت الأفكار فى رأسها ،وتذكرت أنه من اليوم الذى شتمها وسبها ومنعها من إحضار غدائه إلى مكان عمله ، وهذه لاتتخلف يوما عن يوم .

أى صاعقة من السماء تأتى بها ، لكى تنزل سهمها فى نحر هذه الفتاة ، وأية قوة على ظهر الأرض لاتبذل لها الغالى والنفيس ، لكى تقصم رقبة تلك الخليلة . ووصل بها التفكير إلى أن خرجت عن حدود بنى الانسان . وأصبحت أشبه بالحيوان الذى يطارد فريسة ذات منعة وحول .

وهداها جنونها إلى سلب تلك الفتاة أعز شىء لديها ، كما أنها تسعى فى اقتناص أعز حبيب لها ، فاتفقت مع أخيه الأصغر ، وأوهمته وغررت به ، وشجعته على الاشتراك معها فى هذا الجرم الفاسد، حرصاً على أمواله التى هى أموال أخيه،وخوفاً من كثرة القيل والقال، فاندفع الشاب الطائش طوع إشارتها ورهن إرادتها .

وفى ليلة ليلاء ـ عقب سماع صوت المؤذن « الله أكبر. الله أكبر » ـ كان شبحان يتريضان بجوار الشجرة الضخمة حتى إذا ماوافت الفريسة مكانها ، انقض عليها اثنان من الزبانية فأزالا بكارتها بعد جهد جهيد بذلت فيه المسكينة أقصى ما أمكنها بذله ، فسلباها أحلى ما تتجمل به عذراء وتركاها تندب وتنتحب .

وما وافاها خطيبها إلا وهى غارقة فى حومة من الأوهام عدا بحر زاخر من الدماء المهراقة. وحاول جهده أن يعرف منها ما ألم بها، ولكنها لم تستطع ـ لخجلها – أن تتكلم، فظن الجاهل أنها لم تكن إلا خليلة لغيره ، وإنما تتخذه كسلم ترتفع عليه إلى عشيقها المجهول. فاستشاط غيظاً وحمل عليها حملة كادت تذيب أوصالها فرقاً وفزعاً .

أصبح داؤها دائين : فقد شرفها ، وفقد حبيبها الذى داخله الشك فيها ، وأصبح رزؤها رزئين : افتضاح أمرها وضياع مستقبلها . ثم رأته يبتعد عنها فسمت للحاق به ، ولكنه اختفى وتركها .

جلست تفكر وقد عرفت فى مهاجمها الأول صوت ابراهيم شقيق غنيم حبيبها ، فجالت فكرة فى ذهنها مؤداها أن خطيبها ماهو إلا المرسل الوحيد والمدبر الأوحد لهذه المكيدة .

ودخلت الدار وهى تتصنع الهدوء،ولا هدوء،وتعمل جهدها لجلب الابتسام،ولا ابتسام، حتى إذا ماسألها أخوها وجلت واصفر لونها فشدد عليها النكير ونادى أمها التى اعترفت لها بحقيقتها المؤلمة ، فنصحت لابنها أن يخلد إلى السكون والهدوء حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

وفى الصباح الباكر كنت ترى بعض عيدان الذرة تتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، حتى إذا ما سكنت على حال واحدة ، ومضت فترة قصيرة ظهرت فى أول الطريق اثنتان من الماشية يتبعهما راكب حماراً من يتبينه يعرفه فيه إبراهيم شقيق غنيم الخولى ، وكلما اقترب بخطواته المتثاقلة ازدادت أوراق الذرة حركة رغم السكون الشامل وقتئذاك . وما أن وصل إلى منعطف الطريق الموصل إلى حقله حتى دوى فى المكان طلق نارى خر على أثره إبراهيم صريعاً ، وجفلت البهائم هائمة على وجهها وسمع صوت من يجرى فى وسط مزارع الذرة حتى حدود القرية ، وهنا شاهد القوم شبحاً يجرى بسرعة فائقة ثم اختفى فى منزل أبى عبد الله.

وصل الخبر إلى العمدة وسمع الاشاعات عن وجود القاتل فى منزل أبى عبد الله ، فهاجم البيت ، وفيه عثر على بندقية وعدد من الطلقات ، وما أن قفل العمدة راجعاً إلى منزله ومعه المجرم حتى شوهد غنيم يلحق به ويبحث عن مكان أخيه الذى كان يعانى سكرات الموت ، فما كاد يراه حتى طفق يقبله ، وهنا اشار إليه أخوه القتيل أن استمع ما سأقصه عليك؛فأنصت الجميع ، وساد فى المكان صوت رهيب وسكون موحش ، فقال :

(اتفقت معايه حنيفه مراتك على فض بكارة مبروكة أخت حسين بن ابويا عبدالله اللى أنا أستحق منه أكتر من كده علشان بيدارى على شرف أخته ، وامبارح بعد العشاء عملنا العمله دى . وآدينى ياخويا . . . ربنا جازانى بعملى . . . . وربنا يجازى مراتك . . . اللى . . هى . . السبب . . .)

وهنا فاضت الروح إلى باريها . تشكو ظلم الانسان لأخيه الانسان ، وما كاد الجمع يتنبه من غفوة الموت حتى سمعوا مهرولا إليهم يقول . أين العمدة ؟ جناية ! وبمجرد أن وصل إلى

[البقية على الصفحة رقم ١٠٠٨]